الرحلة السورية الثانية

تمهيد

هاجر صاحب هذه المجلة من الديار السورية الى الديار المصرية في شهر رجب سنة ١٣١٥ عقب التوبة من طلب العلم في طرابلس الشام وأخذه شهادة التدريس (العالمية) لاجل القيام بعمل اصلاحي الاسلام والشرق، لا مجال له في بلاد اسلامي عزلي غير مصر، ولاستعانة عليه بصحبة الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته، وعمله مع حكيم الشرق وموقظه من رقدته، (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله أرواحهما. وكنت قبل ذلك أمنّي نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه، ومرافقته في ترحاله وإقامته، فلما توفاه الله تعالى اليه نضيت عني رداء التمني والتواني، وقلت لئن فاتني لقاء المعلم الاول فلن يفوتني لقاء الثاني.[1] وأنشأت (المنار) في أواخر تلك السنة ولم أكن أنوي أن أشتغل بالسياسة ولا بالاصلاح من طريقها بل بالاصلاح الفكري والديني والاجتماعي، ولكن السياسة السوءى عدوة الاصلاح ترى بقاءها بفقده، وحياتها بموته، فهي لا تترك القائم به اذا هو تركها وقد كان دعاني عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون) — اذ كنت في بيروت بعزمي على السفر الى مصر وانشاء صحيفة اصلاحية فيها — الى رياسة التحرير لجريدته فقلت له ليس في البلاد حرية تمكنني من ذلك. قال اترك العلم في السلطان واكتب في الاخلاق والآداب ما تشاء فلا تجد مانعا ولا معارضا، قلت أرأيت اذا بحثت في الكذب الذي هو شر الشرور على الاطلاق وبينت ان أكبر أسباب فشوه وانتشاره هو الاستبداد المانع من قول الصدق، والمعاقب على التزام الحق، أيمكنني أن أنشر هذا في الجريدة وأكون آمنا من عقاب الحكومة؟ قال كلا أن أمثال هذه المباحث

(١) أطلق لقب المعلم الاول عند المشتغلين بالحكمة العربية اليونانية على الحكيم ارسطو والمعلم الثاني على الرئيس ابن سينا

لايمكن نشرها في غير مصر فعجل بالسفر ولا تخبر بعزمك أحدا لئلا يصل الخبر الى الوالي فيمنعك منه

صادرت حكومة سورية العدد الثاني من المنار بعد توزيعه، لمقالة فيه عنوانها (القول الفصل في سعادة الامة) ليس فيها ذكر لحكومتها ولا لغيرها من الحكومات بسوء ، ثم صدرت ارادة السلطان عبد الحميد بمنع المنار من دخول مملكته في الشهر السادس من عمره وتلا ذلك اضطهاد والدي واخوتي لاجلي بعد خيبة مسعى السياسة لاخراجي من مصر وعرض ما أحب من المناصب والوظائف العلمية أو غيرها في ديار الشام أو غيرها ، وبذلك حرمت من زيارة وطني الى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٧ فزرته عقب اعلانه اذ كانت البلاد ترقص به طربا والناس يحتفلون فيها لاظهار سرورهم بالخطب والاناشيد ، ويحتفون بمن يعود اليهم من المهاجرين المجاهدين ، والاحرار المنفيين وأشباه المنفيين ، ويتحاورون ويتناجون بما يجول في خواطرهم من الامانى والآمال ، وما يرجون من كبار الاعمال ، ويقدسون جمعية الاتحاد والترقي ويطرون من عرفوا أسماءهم من زعمائها ، ويكرمون كل من لقوا من أعضائها ،

قد علم قراء المنار في ذلك العهد أنني كنت باعلان الدستور مسروراً لامغرورا ، وراجيا خائفا ، لا راجيا متمنيا ، ولكني رأيت الناس في البلاد العثمانية سكارى من تأثير ذلك الانقلاب أكثرهم يحسب ان البلاد سعدت سعادة لا شقاء بعدها ، وأقلهم منزعج ممتعض لما فاته من المال والجاه في ظل الحكومة الحميدية وهم أعوان تلك الحكومة وجواسيسها . وقد أشرت الى أسباب خوفي ومثاراته في أول مقالة كتبتها في الترحيب بالانقلاب وأهمها توهم استبداد رجال الثورة من الاتحاديين وقيامهم بالعصبية الجنسية ودعوى « الخاكية التركية » والغلو في الحرية ، . .

لذلك كانت نصيحتي لاهل البلاد السورية التي أبثها في الاندية والمدارس وأوادعها أكثر الخطب السياسية والادبية هي تذكيرهم بما يجب من العناية بالعلم واللغة العربية والتهذيب والثروة ليكونوا أحياء أعزاء بأنفسهم ، وعصبوا رؤساء في ولاية دولتهم ، وقد رجوت أن أجد ثلة من الشبان ، المفكرين والكهول المجربين أولي

عزيمة وشكيمة ، وأخلاق قوية ، ينهضون بذلك متعاونين فلم أجد عند أحد أملا في العمل للامة من طريق الامة ، بل وجدت الاعناق كلها متلفة الى الحكومة والآمال كلها موجهة اليها ومحصورة فيها ، فحزنت حزنا شديدا ونبهت الجمهور الى غرورهم بالحرية الموهومة والسعادة التي يتمنونها من اعلان الدستور في مجالس كثيرة كان أوضحها وأظهرها خطبة ألقيتها في نادي الجمعية العثمانية في بيروت في احتفال كبير دعيت اليه عرضت فيها بتلك الاحتفالات المنظمة بالحرية وشبهتهم فيها بعاشق أم عمرو اذ هام صبابة بها وهو لم يرها ، ولا شاهد شيئا من محاسنها ، وانما سمع رجلا ينشد في الطريق :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة　　ردي علي فؤادي أينما كانا

فاستنبط من هذا البيت ان أم عمرو أجمل النساء وأجدر هن بأن تعشق فعشقها ، ثم لم يلبث أن أخذه من الحزن والجزع لفراقها ، بقدر ما أصابه من الشغف والصبابة بها ، ليبت آخر من الشعر سمعه من رجل آخر مار في الطريق فاستنبط أنها ماتت وهو

لقد ذهب الحمار بأم عمرو　　فلا رجعت ولا رجع الحمار

هكذا صرخت بأولئك الجماهير التي أخشى أن تكونوا رقصتم طربا وهمتم سرورا بحرية متخيلة موهومة ، وأن ينتهي الامر بياسكم منها وبكائكم عليها قبل أن تروها ، وتتمتعوا بما ترجون من السعادة بها ، وهكذا كان ، ووقع ما كان عندي ولم يكن عند الجمهور في الحسبان ، ولم يحل الحول على تلك الحرية الاتحادية وتقديس جميع الشعوب العثمانية لرجال جمعية الاتحاد والترقي حتى نجم في الجمعية قرنا الاستبداد والعصبية التركية ، فنطحت بهما الحرية والدستور وآمال الشعوب العثمانية فيهما حتى قضت عليهما فلم يبق لهما في البلاد العثمانية عين ولا أثر ، وما انقطعت آمال هذه الشعوب من الدولة التي دانوا لسلطانها عدة قرون الا وتجددت لهم آمال أخرى في حياة الاستقلال القومي بل صاروا يفضلون الزوال على الخنوع لاستبداد هذه الجمعية المغرورة المتسورة المتكبرة

كانت الدولة العثمانية في القرون الاخيرة ، التي قويت فيها دول أوربة واعتزت ، وتواطأت على استعباد الشعوب الآسيوية والافريقية ، هي الدولة الاسلامية الوحيدة المعترف لها بالحقوق الدولية معهم ، لذلك كان حرص المسلمين على بقائها واعلاء

شأنها عظيما جدا ، وكان تعلق الشعوب الاسلامية بها أكبر قوة لها في نظر دول أوربة بما كانت تتقي ايقاظ شعورهم السياسي بما يوحيه اليهم من الوحدة والاستقلال . ولم تكن لهذه الدولة هذه القيمة لا بكون بلاد العرب التي هي مهد الاسلام وموطن نشأته الدينية والمدنية جزءا طبيعيا منها ، ولكن الاتحاديين المستكبرين احتقروا العرب و بلادهم ودينهم فلم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة ، ولا دينا ولا حرمة ، فاضطهدوهم وأذلوهم وحاولوا ابطال لغتهم التي هي لغة كتاب الله ودينه استغناء عنها ومحاولة لاستخدامها باللغة التي جعلوها لغة « حاكميتهم الملية » وجعل بلادهم الخصبة كسورية والعراق تركية محضة وجزيرتهم مستعمرة للترك يتصرفون فيها تصرف المالك في عقاره والسيد في عبيده وإمائه ،

فلما رأيت بوادر هذه السياسة الاتحادية السوء رحلت الى الآستانة دار الملك سلامة الى لافي خطرها ، وايقاف ماكاد يستشري من ضررها ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع ، فمكثت في دار الملك ستة كاملة أطلع طلع القوم بمحاورة زعمائهم ووزرائهم ، ومذاكرة علمائهم وعقلائهم ، وما عدت من تلك العاصمة الا وأنا موقن بأن هذه الجمعية ستقضي على هذه الدولة ، وأن اضطهادها بسلطة الحكومة للعرب سيعيد اليهم عصبيتهم الجنسية التي فقدوها في بلاد حضارتهم كسورية والعراق ، وعوات على السعي لجعل القاعدة التي يرفع عليها بناء النهضة العربية هي العلم والثروة والوحدة حتى لا توقف حياتهم على حياة هذه الدولة ولا يموتوا بموتها ، مع الحذر من أن يكونوا باختيارهم سببا من أسباب سقوطها ، والاجتهاد في موالاة الشعب التركي والتعاون معه على مكافحة النزغات الالحادية والنزعات المادية ، وقد أسس في أثناء اقامتنا في الآستانة (المنتدى الادبي) لجمع كلمة شبان العرب المشتغلين بتلقي العلوم والفنون في مدارسها والتعاون على طلب العلم والتعارف والتآلف في سبيل الارتقاء

بعد العودة من الآستانة بأشهر رحلت الى (الهند) فسقط فالكويت فالبصرة فبغداد فسورية واتفق بعد وصولي الى سورية ان ظفر حزب الحرية والائتلاف في الآستانة بحزب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثين وما كان الفلج لهذا الحزب الا بتألفه من أحرار العرب ومنصفي الترك وكانا حزبين فاتحدا وصارا حزبا واحدا ،

فرأيت السواد الاعظم من السوريين فرحين مغبوطين بخذلان الاتحاديين بقدر ما رأيت قبل ثلاث سنين من اغتباطهم بهم وافتخارهم بالانتماء اليهم، وانتمى الاكثرون منهم الى الائتلافيين خصومهم، وخفتت أصوات من بقي من أتباعهم فكان الالوف من الناس يجتمعون في الاندية والمحافل يتبارون في إلقاء الخطب والقصائد في الطعن فيهم والقدح منهم، بعد ان كانت تلقى في الفخر بهم والثناء عليهم، وابتغاء الزلفى عندهم والوسيلة اليهم

ثم أديل لهم من خصومهم الائتلافيين في عاصمة الملك فنكلوا بهم فيها شر تنكيل ولم ينج من زعماء هؤلاء الخصوم الا من فر مستنكرا الى أوربة أو مصر (ومنهم أمير الالاي صادق بك والاستاذ حسن صبري أفندي ورشيد بك ناظر الداخلية) وكان ذلك كله في أثناء حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة العثمانية حتى كادت دولة البلغار الجديدة تأخذ القسطنطينية منها عنوة، وأول ما أصاب الدولة منها من الضعف والوهن وما كان في أثنائها من سحب قواها العسكرية من الولايات العربية لانتقام الاتحاديون ممن أظهروا لهم العداوة في البلاد العربية ولا سيما الذين ألفوا الجمعيات الوطنية كما انتقموا من أعدائهم في العاصمة، ولكنهم لضعفهم أسروا الكيد، وكظموا الغيظ والضغن، وأظهروا الميل الى الاصلاح والجنوح الى الصلح، وكان من أمرهم في إبان انعقاد المؤتمر السوري في باريس ما هو معروف، وفي استمالة طالب بك النقيب بعد محاولة اغتياله أن توسلوا به الى الاتفاق بينهم وبين الامير ابن سعود

وقبل الانتهاء من تمثيل دور الاتفاق بينهم وبين ممثلي الحركة السياسية من العرب في العاصمة (وفي مقدمتهم أصدق أخلائنا وأشعري سياسيينا السيد الزهراوي وباقعة شبابنا عبد الكريم الخليلي) اشتعلت نار الحرب الاوربية الكبرى ولم يلبثوا أن أصلوا الدولة العثمانية سعيرها، وأحرقوها بشرر شرورها، وفي أثنائها اختاروا لقيادة فيلق سورية (منبت النهضة العربية) أشد زعمائهم قسوة وأغلظ قوادهم قلبا وأضراهم بسفك الدماء أحمد جمال باشا الذي نكل بخصومهم الائتلافيين في العاصمة ذلك التنكيل الفظيع، ومنحوه السلطة المطلقة فخادع أهل البلاد أولا باظهار الميل الى العرب

والرغبة في مساعدة النهضة العربية ، وجعلها عونا وظهيرا للنهضة التركية ، تأييدا لما بقيا من الجامعة الاسلامية ، وما زال يقتل منهم في الدروة والغارب ، الى أن عرف أصحاب الافكار الدينية ، والاصلاحية المؤثرة ، وأولي المبادئ الثابتة ، والعزائم الصادقة ، ثم ما تم في [illegible] الى أن تم خروج الجيوش من البلاد وقذف بعضها جيوش الروسية في حدودها الزمهريرية ، وألقى بالبعض الآخر في أتون ملحمة الدردنيل الكبرى ، وبقي لنفسه في البلاد — بعد هذا كله بطش تلك البطشة الكبرى تقتيلا وتصليبا للافراد النابغين ، وتشريدا وتغريبا للاسر والبيوتات والاغنياء والوجهاء ، وتلا ذلك نكبة المجاعة المجتاحة ، في إثر المصادرات الكثيرة للاموال الناطقة والصامتة حتى أكل الناس الاقذار والجيف بل أكلت الامهات أولادها ، وهو يرى ويسمع ، ويتمتع ويفسق ويفجر ، وينهى ويأمر ، وفعل أقرانه وأقرانه في العراق نحوا مما فعل في سورية ، فليأسوا الامة العربية من الدولة العثمانية ، واضطروها الى إعلان الثورة في البلاد الحجازية ، فكانت من أسباب تقلص ظلها عن رؤوسهم ، وزوال سلطانها من بلادهم ، ولكنه سبب اضطراري ، لا مقصد اختياري ، وانما كان القصد حياة العرب بالحرية والاستقلال ، لا إماتة الترك بأيديهم ، ولا اماتة أنفسهم تحت أرجلهم ، ولا مجال في هذا التمهيد للاشارة الى شيء من وصف هذه الثورة ولا بيان ماعرفنا منها وما أنكرنا ، وانما نختمه بأن الحرب العامة انتهت باحتلال جيش الثورة مع جيوش الحلفاء للبلاد السورية وبعد مرور بضعة أشهر على استقرار الاحتلال ، وتبدل الاحوال ، تيسرت لنا الرحلة الثانية الى هذه البلاد ، وسنبين ماترى فيه الفائدة والعبرة مما رأينا وسمعنا فيها ، وموعدنا الاجزاء الآتية من المنار ؟

تصحيح أغلاط الجزء السادس من م ٢١ منار (١)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٢٧	١٩	بمكانه	بمكانة
»	٢٠	له	الحالة
٣٢٨	٨	قد	لقد
»	١٧	باختصار	اختصار
٣٢٩	٣	أحول	أحوال
»	١٦	عادة	وعادة
٣٣١	٦	وعدني	مارعدتني
٣٣٢	٢	اذ	اذا
»	٣	تهويم	تهويم
»	٦	فانشر	فانشر
٣٣٣	٢	ترى	لاترى
»	٩	واعذارا	اعذارا له
		لؤلئه	ولؤلئه

(١) انظر ص ٣٩٢ من هذا الجزء